التنوع أو التشابه؟ التأملات حول الفروق بين أوربا و الولايات المتحدة

لكي نفهم سبب وجود نفسان قائدان في روح أمريكا مثلما قال المؤلف غوته عن نفسه: *"لي نفسان في جسد واحد"* و لكي نفهم سبب الفرق الكبير بين أمريكا و أوربا في النظر إلى العالم فنحتاج إلى دراسة التاريخ و علم النفس. فنبتدئ بالنظر إلى أفكار حول القانون لكي نبحث كيف شكلت سيكولوجية "بطل الخير" (the good guy) - و التي كانت في بادئ الأمر موصولة إلى المنطقة الغربية لأمريكا – تعريف التميز و القيم و القانون و كيف أصبحت هذه الفكرة مختلفة للغاية عن العقائدية الأوروبية. ففهم هذه الاختلافات و عواقبها سيساهم في فهم أصول ما يسمه الأميركيون مجرد الحساس مضاد لأمريكا. كما سيضيء فهم هذه الاختلافات ضوءا على ضخامة المشاكل التي بدأتها مجموعة صغيرة من الأشخاص التي تزعم أنها تمثل أمة كبيرة.

سيكولوجية بطل الخير

فاعتبر مقيمي السواحل الشرقية للولايات المتحدة أنفسهم ورثاء للتراث الكبير للقانون اليوناني- الروماني و القانون العبري- المسيحي و كان هذا التراث متأثرا بدرجة كبيرة من التراث الانكلو ساكسي. فلم يكن الوضع هكذا دائما في الغرب الأقصى و الذي طالما كانت الظروف فيه قاسية جدا. فأصبحت هذه الظروف مصدر إلهام لنوع أفلام رعاة الأبقار. فركزت هذه الأفلام اهتمام المشاهد على نوع خاص من الأبطال مثل "لون رينجر" أو "زورو" . إن هؤلاء الأبطال زعموا أن يعملوا باسم العدل و في نفس الوقت اخذوا الحق بأيديهم و قتلوا و دمروا بغض النظر عن السلطات المحلية أو الصلاحية القضائية. إذا كان المرء بطل الخير فبررت الغاية بالوسيلة. و طالما كان المناخ فوضائيا في تلك الأيام فاصبح النظام فوق القانون فبمرور الزمن هاجر هذا النوع من رعاة البقر إلى المدن فهكذا برز نوع جديد من رعاة الأبقار مدنيين و الذين يسمون "سوبرمان" و "باتمان" و "سبيدرمان" و "كات ومن". فبدأت هذه القصص كقصص مصورة و صارت برامج مسلسلة على شاشة التلفزيون و صارت أفلاما في السينما فيما بعد. في السنوات الأخيرة تغيرت أجهزة أبطال التلفزيون و تلقوا أسماء ا أحدث مثل "نيتريدر" و "ار ولف". و بالرغم من تغيير الأسماء سادت السلوكية الأساسية الموجودة معهم في الأيام الشبه الوحشية في الغرب الأقصى. و كانت الفكرة السائدة آنذاك هي إن القوة فوق الحق. و تدريجيا انتشرت هذه الفكرة في البلد. صدرت أخيرا من جامعة هارفارد دراسة مقترحة تزعم على أن أغنى الدول هي اكثر دول تطورا و من ثم لها الحق في عمل ما تشاء.

و بتوازن مع هذه السلوكية التي ترفع "الخير" فوق القانون برزت فكرة أخرى: التوافق مع أحد ليس لديه نفس وجهة النظر بالنسبة إلى موضوع ما فحسب ولكن التوافق شرط للصداقة. يعني أن الذين كانوا متوافقين مع بعضهم كانوا أصدقاء و حلفاء. و إن الذين كانوا غير متوافقين مع بعضهم كانوا أعداءاً. إن الأجانب الذين لم يكونوا متوافقين مع وجهة النظر الذاتية كانوا من "الأعداء الأجانب".

أما العقائدية للمرء فلم تكن بمجرد مجموعة عقائد يعتقدها اليوم و سوف تتغير غدا.
إن العقائد صارت مركزية لتقييم شخص ما فإذن أصبحت العقائد أساسية لقبول الشخص لأي أمة. فكان الحال خصوصا مع العقائد الدينية. في بعض المجموعات المتطرفة قد أدت هذه العقائد إلى التعصب الديني و التي كانت أحيانا ما عرضتاً للاستهزاء و العبث. على نطاق مخفي اندمجت المجموعات الأكثر اعتدالاً بطريقة ما مع سلوك وضع "الخير" فوق القانون. على مستوى سطحي فهذا يعني أن شخصية أل "لون رينجر" أصبحت مواطن عادي مثل شخصيات الأفلام و منها "زورو" و "سوبرمان" و "باتمان". أما في الحياة العادية هذه تعنى أن الشخصية الفردية قد تصبح تسمية لأبطال الخير أو الرجال الطيبين. فطالما أن تلك الخيالات أو السلوكيات بقيت خاصة بالأفراد فلم تكن لديهم مشكلة.

بل على العكس فبالنسبة للذين لم يتركوا قرا هم الصغيرة فهذه وجه النظر كانت معقولة للغاية. ولكن كانت العواقب لسوء الحظ غير متوقعة فنتيجة لهذا الموقف نحن كلنا أجانب في كل مكان في العالم ما عدا في دارنا أو مزرعتنا أو في المنطقة الصغيرة في قريتنا و التي بدأت حياتنا فيها. فالمرء الذي كان يحب السفر وجد بعد قليل أن الاحترام المتبادل كان أفضل طريقة لتجنيبه أن يكون ضحية لأكلة لحوم البشر أو وقع ضحية لمصير ألطف. إذا لم نبدأ بقبول الشخص الآخر كإنسان متساو فلماذا نتوقع مثل هذه المعاملة منه و خصوصا إذا جاء من حضارة أقدم بكثير من حضارتنا؟ لم يحتج رعاة البقر على هذا الرقي. غير أن رعاة البقر المسافرون يحتاجون إليها. و بطبيعة الحال كل من يسافر يحتاج إليها. و حتى من يبقى في منزله فينبغي أن يملك الرقي.

إن بروز رونالد ريغان كرئيس لأمريكا لفترة جديدة أثبت ريغان أن بطل الأفلام قد يصبح بطلا في الحياة الواقعية. فتعلم أيضا أن التملق بالكلمات قد يكون طريقة أكثر فعاليا لتهديم سور برلين من إدخال المدافع و الدبابات الثقيلة. و في نفس الوقت فينبغي أن نأخذ في عين الاعتبار أن عند تحقق حلم صاحب مزرعة في غرب الولايات المتحدة أن يكون رئيس لأمريكا كانت هناك مشاكل ليست مرئية. فغالبا ما تمثلت القيم الشخصية السائدة في حياة فلان كقيم الوطن. فنتيجة لذلك كان الذين يتوافقون مع أمريكا في الرأي أصبحوا أصدقاء و الذين كانوا يعارضون رأي أمريكا يعتبرون أعداءها. و الذين كانوا من عقيدة الدين المسيحي الذاتية كانوا يعتبروا من أصدقاء أمريكا و الذين كانوا من عقائدية أخرى كانوا من أعداءها و كانوا يعتبرون أعضاء من محور الشر. فلا عجب أن الأمريكان كانوا محيرين في بيروت و التي كانت تسكن فيها من قبل أكثر من مائة طائفة مسيحية بالسلام و في أجواء ودية مع المسلمين واليهود.

إن نظرية الغرب الأمريكي و التي انتشرت في واشنطن كانت تعتمد على إن الله معنا و من ثم نحن [الأمريكيون] نعمل الخير بطبيعة الحال و مع أن أعمالنا تخالف القوانين القديمة بدرجة ما. فأذن المشكلة كانت: كيف نعيش طبقا لقوانيننا؟ على أي حال فلم تطبق قوانين الأجانب على الأمريكيين. يعني إن قوانين الذين كانوا يختلفون عن الأمريكيين في الرأي لم تطبق. فإذن ظهر تحد بارز: أثبت القانون الأمريكي للأمريكيين في كل مكان و في كل وقت ورفض الأمريكيون قوانين الشعوب الأخرى من تطبيقها عليهم . إذا كان سوبرمان عائشا فهل فهم القضية جيدا أم لا؟ إن كان يعارض المحكمة الدولية في لا هاي فلا شك فيه إنه سيعرضها للمشاكل.

لم تزل الحكومة الراهنة تمارس تأثيرات الغرب الأمريكي على البيت الأبيض. فإن "الحروب" في أفغانستان و العراق كانت أكثر من محاولة محاربة الإرهاب و توسيع الديموقراطية. فقد كانت المحاولات الصريحة أو قد كانت المحاولات الماكرة فلا شك فيه أن بعض الجنود يجدّون أكثر من اللزوم في محاولاتهم برفع التقاليد الشخصية التابعة للشخص المستقل الذي ينقذ الموقف حسنة القصد إلى مستوى سياسي و وطني و الذي قد ينقذ العالم. فقد أهملت مثل هذه التصرفات في المدن الصغيرة في غرب أمريكا و في دالس. لكن بغداد لم تكن مجرد حيا من الصفيح. بل على العكس فإنها كانت مهد الحضارة العالمية لآلاف السنوات قبل اكتشاف أمريكا من قبل كولومبس.

إذن ما سمي بالحرب ضد الإرهاب كانت فعلا الحملات التي أرهبت القانون. كانت هنالك فرضية ضمنية أن بعض الأشخاص المركزيين و بالتالي الدول التي يزعمون انهم يعملوا باسمها كانت فوق القانون أو بتعبير أدق خارج القانون و بسبب حالة الطوارئ التي كانوا يعيشونها. لقد حذر "خبراء" الكونجرس من "إخفاء الإفراط في إجراءات المراقبة على السكان بحجة "حالة الطوارئ" من أن تدم طويلا. لكن الإدارة الأمريكية الحالية تثبت غلط الكونجرس.

و هنا نطرح أحد الأسباب لماذا كان العالم غير مرتاحا من أمريكا. لقد كان هنالك شيئا واحدا بمستوى فردي و هو فهم هذا التعارض بين الناس الموافقين على وجهة نظرهم و بين الناس المعارضين لوجهة نظرهم. إذا حولنا هذه الفكرة إلى السياسة الحكومية هذا يعني أن كل واحد عارض وجهة نظر الحكومة فاعتبر عدوا للوطن. فمعناه من الناحية العملية هو أن كل زائر للولايات المتحدة أو المملكة المتحدة قد كان معرضا للحبس و الاعتقال لمدة غير محددة بدون الإثباتات. فلا يبدو في الأفق إن هنالك دافع للسلام العالمي على الإطلاق و لا يوجد تشجيع خصوصي للسياحة إلى هاذين البلدين بسبب هذه الإجراءات.

إذا درسنا النظرية الفلسفية لبطل الخير هذه نكتشف العلاقات المتأصلة في التحديدات الأميركية فيما يتعلق في الاختلاف و النظر إلى القانون. فينبغي شرح هذه العلاقات بالاختصار في ما يلي.

<u>التمييز و التنوع</u>

لقد قال الأستاذ الكندي مارشال مكلون إننا نعيش في قرية عالمية و إننا مرتبطين مع بعضنا كأن العالم كان فعلا قرية. فمن الصحيح أن وسائل التخاطب و بشكل خاص وسائل التخاطب المنقولة ربطت الناس من جميع أنحاء العالم . لكن لم تختفي القرى الفردية. ومن ثم طرح السؤال: هل المرء يرغب أو قابل على التخاطب؟

لقد عرضنا فما سبق نوعا من السيكولوجية التي كانت خاصة بالغرب الأميركي. و التي كانت تنص على تحديد درجة الصداقة و الترابط الاجتماعي. بتعبير ابسط : التشابه كان المبدأ لكل شيء. و بالفعل كاد الأمر يكون شيئا مقدسا. إن التفاهم في إنكلترا هو عبارة عن موافقة غير معبرة عنها. مع أن التفاهم في أمريكا اصبح المفتاح

للانتماء لنفس المجموعة التي كانت لها أثار من العشيرة. و من ثم فقد اصبح معنى السؤال البسيط "هل أنت موافق؟" في اللغة الإنكليزية "do you agree?" معنى مختلف للغاية من نفس السؤال في الفرنسية " Êtes vous d´accord? " أو في اللغة الألماني
"Sind Sie einverstanden?". إن قصد هاذين السؤالين الفرنسي و الألماني هو اتخاذ قرارا للعمل المشترك بغض النظر عن الموافقة على الآراء. فعلى المستوى السياسي كانت عند الأوربيين ما سميت العلاقات الودية و الاتفاقيات [ententes و concordats و concords] و التي كانت بعيدة عن المفهوم الأميركي حول الاتفاقية. فالمفهوم الأميركي عن معنى كلمة "موافقة" هو أن المرء كان "من أهل الخير" أو بتعبير أدق "من مجموعتنا" فإذن كان هذا الشخص "مثلنا". أما الكلمتان "علاقة ودية" فمعناها لم يتضمن مثل هذا التشابه الذي سيطر على العلاقات الأميركية فمع أنها كانت مجرد قرارات من طرفين للعمل المشترك حتى و لو اختلفت آرائهم كثيرا و حتى و لو أحتقر البعض أحيانا. إن العلاقات اكثر لطفا كانت عادة أحم فلذلك سميت "العلاقات الحميمة" [ententes cordiales] باللغة الفرنسية.

ففي أوربا كان هناك فرق كبير بين فهم الآراء و المشاركة فيها فالشخص الأميركي الذي سأل: "هل أنت معي؟" افترض أن الشخص الأخر لم يفهم السؤال الأمريكي فحسب بل و لكنه كان لديه نفس وجهة النظر حول الموضوع. حقا إذا كان هناك فرق بين أقوال فلان و أفكاره فكان المرء غير صريحا. فإذن كان "شرًا". فلهذا السبب وقع الأمريكان في ختام رسائلهم ب: "المخلص...." ما عدا الذين - و من ضمنهم المفكر لينال تريلين - كانوا واعيين من سخرية هذه التلميح إلى مفكري سان سير.

في أوربا أي خطأ قد يكون فادحا في الموقف للبعض, أن الوضع بقى على ما كان عليه و أن الاختلاف لم يكن مهما. فقال الألمان: "بالنسبة لي ليس هناك فرق" [Es ist mir egal] أو مثل التعبير الفرنسي: "ليس بشيء" [Ce n'est de rien] و الأسبان و الإيطاليون قالوا إن القضية ليست لها عواقب: De nada و Non c'è niente. فلم تلمح أي من هذه التعبيرات إلى الاشتراك في الآراء. لم تكن إلا وسائل للتأكد بأن الوضع الراهن أو الصداقة الموجودة قد تستمر بنفس الطريقة التي سارت بها من قبل. افترض الأمريكان أن الأفكار و الكلمات و الأفعال كانت تتساوى فيما بينها و من ثم لم يميزوا بينها و لذلك قالوا فقط : "لا خلاف" [No difference]

فبوجهة نظر الأمريكان كانت الفروق سلبية. كان المعنى لذلك بموجب العلاقات الإنسانية أن الأصدقاء يلزمون "تسوية خلافاتهم" أو عند فشل ذلك "يفترض أن كل واحد أن يذهب في طريقه". على العكس من ذلك سأل الأوربيون بعضا: "هل أنت ترى الفرق؟" فلم يكن الغرض من ذلك الإشتكاء حول عائق ما في العلاقة بل على العكس من ذلك فكان الغرض من ذلك الإشارة إلى مستوى أعمق في فهم الموضوع الذي نتج من النظر إلى فروق متعددة بعد الحصول على وجهة نظر أكثر مميزة. فسبقت ذلك تقاليد طويلة. كان التمييز نشاطا مهما عند العلماء و الفلاسفة الأوربيين و الذي سموه *Distinguendum est* [ينبغي التمييز] فبحث العلماء عن مفهوم أكثر ارتقاء مما هو عليه حاليا.

فمن ثم تتضمن جوهر الصداقة في التقاليد الأوروبية الاعتراف بالفروق الإيجابية و فهمها و قبول الشخص الآخر بكل محاسنه و عيوبه و عدم الافتراض بأن المرء "يلزم أن يشارك في آراء صديقه". و قد نفهم من هذا أن معنى كلمة "الصداقة" في أوربا لا تتضمن المعنى الواسع في المفهوم الأميركي و لكنها تعني بأن تكون لدى الناس بعض العادات المختلفة جدا لكنها قد تكون مقبولة لكي يكونوا أصدقاء في هذا المعنى. تعني بأن المرء الذي سافر لكي يبحث الاختلاف و التنوع بدلا من المزيد أو نفس الشيء. فاعتبر في وجهة النظر الأوربية وجود شيء مختلف أصبح جزءاً من الفضائل و لم يكن فشلا: فاعتبر هذا المرء كشخص خاص.

إن البحث الأميركي عن التشابه أدى إلى ذهنية الاندماج والتي كانت بعيدة عن وجهة النظر الأوربية و حيث كان التنوع و ليس التشابه جوهر شخصية فلان. ففي أوربا كان للتعبير الفرنسي "عاش الفرق" [Vive la différence!] معنى اعمق. و من ثم كان من ضمن طرق الأوربيين للتعبير عن جوهر كيانهم هي العيش كبوهيمي. في إنكلترا إذا كان المرء يعيش هنالك فيعني إنه نجح في المجتمع غير أن المرء الذي سمي "غريبا" في أمريكا كان يعتبر شخصا يعيش على هامش المجتمع و يوشك أن يكون إنسان غير مرغوب فيه. و من ثم اعتبر الذين كانوا مختلفي الفكر و المنشقين عن وجهة النظر الأمريكية من وجه نظر جوزف مكارثي عضو مجلس الشيوخ الأمريكي غير أمريكيين.

أما الأوربيون فهم لم يميزوا بين البعد العام و الخاص في كل أعمالهم. غير أن الأمريكيين مالوا إلى التمييز بين تصرفاتهم في العمل و بين تصرفاتهم في منازلهم. فتنازل الأمريكان عن مشاعرهم المعلنة مع إن الأوربيون لم

يعملوا ذلك أو بدرجة اقل للغاية. و في نفس الوقت نشر الأمريكان فكرتهم للتشابه إلى المجال العام و الخاص. كنتيجة توقع الأمريكان من أصدقائهم أن يشتركوا في نفس الآراء و يتحدثوا بنفس لغتهم. فمن ثم اعتبر الأمريكان الأوربيين الذين لم يجيدوا اللهجة الإنكليزية الأمريكية مثلهم مختلفين للغاية و هو شيء سلبي و علاوة على ذلك اعتبروهم جهلاء. أما الأوربيون فغالبا ما اعتبروا الأمريكان اللذين لم يقدروا على التحدث إلا في اللغة الإنكليزية جهلاء و غير مبالين.

مدد هذا التشابه إلى أبعاد كثيرة. فالأمريكان المسافرون توقعوا أن الطعام بقى مثلما كان في وطنهم. و من ثم دافع الأمريكان عن طريقة تحضير مأكولات ماكدونالدز بطريقة فاعلة و كان السبب في اغلب الأحوال عدم التغيير في هذه الطريقة. فلا تغير في شكل خبزة هامبرجر على أي حال: هامبرجر تعني هامبرجر. و في نفس الوقت اعتبر الأوربيون طريقة ماكدونالدز رتيبة. فبدى التكرار في القول الفرنسي "وردة هي وردة هي وردة"و هذا يؤكد على امتداح رتابة الوردة و لكنه كان بالفعل امتداح على تنوعها و فرديتها.

على ما يبدو إن هذه "الفروق" السطحية لها عواقب جسيمة. و من ناحية لغوية عنت هذه العواقب أن الأمريكان فضلوا لغة واحدة بينما الأوربيون فضلوا لغات متعددة. أحيانا افترضوا الأمريكان أن الناس اللذين لم يجيدوا اللغة الإنكليزية فهم غير موثوق بهم. و على عكس ذلك افترضوا الأوربيون أحيانا أن الناس اللذين لم يدرسوا عدة لغات فهم غير فاهمين لوجهة النظر العالمية. فللأسف نظر بعض السياح الأمريكان السذج لهذا الافتراض الأوربي كأحاسيس معادية للأمريكان. لذلك فإن اللذين لم يريدوا الصداقة مع الأمريكان اعتبروا هم "أعداء".

أما في مجال فن العمارة فكان معنا هذه الفروق التي تبدو سطحية أن القرى و المدن الأمريكية بصفة عامة تشابهت فيما بينها. ومن ثم اعتبر المرء الذي ميز نفسه عن غيره اقل أمريكيا من الذي كان أمريكيا في الأصل. فانطبق ذلك بنفس الدرجة على الأطعمة و فن العمارة. فان فن العمارة الأمريكية الأصلية تتشابه تشابها كبيرا. فان المدن التي كانت مناظرها مختلفة كانت على هامش أل "غير أمريكي". فنتيجة للخوف من التميز كان هنالك خوف من التنوع غير متوقع.

ففي أوربا كاد يكون عكس الحال. فاعتزت مدينة أوربية اعتزازا كبيرا بتميزها عن المدن المجاورة حتى و لو كانت فقط 8 كم بعيدة منها. فاصبح التنوع في أوربا عنصرا مركزيا للتعبير الثقافي فإذن كان يعتبر التمييز أحد الفضائل. في أوربا ذهب أحد إلى ماكدونالدز في أوقات عجيبة كما لو كان لديه رغبة في الشراء و ليس في الطبخ أو التغيير في نمط حياته. و لكن في أغلب الأوقات فلم يكن طعام ماكدونلدز شيقا. فلماذا قد يرضى المرء على نوع واحد من الأجبان الموجود في خبزة الهامبرجر بينما هو يقدر على اختيار نوع آخر من آلاف الأنواع الأخرى؟ لماذا يحدد المرء نفسه على "الاختيار" بين ماركتي بيبسى و كوكا كولا فمتى يقدر على اختيار نوع من النبيذ من بين آلاف الأنواع الأخرى؟ فالإنسان الأوربي شرب و أكل المشروبات و المأكولات المختلفة في المباني متعددة الأشكال. فوجد المرء فيها فروقا إيجابية و متنوعة. ولهذا السبب أمكن القول إن كان هنالك مدن غير أمريكية مع انه لم يمكن القول إنه لا توجد مدينة فرنسية أو إيطالية أو إنكليزية. فكانت هنالك فقط المدن الفرنسية و المدن الإيطالية و المدن الإنكليزية.

لان الفرق لم يعتبر كفضيلة في أمريكا فكل شيء كان هنالك هو الميل للتشابه فيما يتعلق بالصوت و المنظر و الذوق. فعندما زار الأمريكان بلدانًا أخرى أقاموا في اغلب الأحوال في الفنادق التي كانت لها درجة كبيرة من التشابه مع منازلهم في أمريكا. و لهذا السبب حب الأمريكان فنادق هيلتون و شراتون و ماريوت. على العكس من ذلك بحث الأوربيون عن اكبر درجات التنوع فيما يتعلق بالصوت و المنظر و الذوق. فإذن التنوع يعتبر فضيلة في أوربا. فعندما زار الأوربيون بلدانًا أخرى أقاموا غالبا ما في الفنادق التي كانت على اصغر درجة من درجات التشابه مع منازلهم. لذلك وجود فندق مع اختلاف بسيط عما موجود في بلدانهم هو شيئا إيجابيا. فهنالك شيء لا يمكن إنكاره عندما قام السياح الألمان بالذهاب إلى إيطالية أخذ معهم النقانق الألمانية أو الإنكليز الذين أخذوا معهم النقانق و البطاطس المهروسة إلى كل الأماكن التي ذهبوا إليها. بل و "الأوربي الحقيقي" قد سخر من هذه العادات بنفس الطريقة التي سخر فيها الأوربيون من الأمريكان الذين لبسوا القمصان ذات الألوان الصارخة. تماما كافتخار الأمريكان بأنفسهم لدرجة تشابههم , فالأوربيون كانوا فخورين على درجات النقص في التشابه لديهم.

لقد كان من السذاجة إذا افترضنا إنه في بلد كأمريكا مشهور بأقصى درجات الانفرادية, كان عاجزًا عن الاختلاف في التشابه. فإن الفرق الدقيق في أمريكا هو أن التمييز و التنوع بدرجة انهما قد يوجدان في مثل هذا المناخ هما شيئان شخصيان. ففي البداية سند المرء نفس الأفكار على المستوى العام و الخاص إلى درجة الاتفاق.

فإذا تطابقت صفات الشخص مع هذه المعايير مرة واحدة أصبح مقبولا في المجتمع. فلذلك اعتبر كل مواطن في الولايات المتحدة أولا أمريكيا. فعمل المرء ما كان يريده: فلبس القمصان ذات الألوان الفاتحة و الشعر الطويل و لبس البدلات الفاخرة التي جعلت الأمريكان مشهورين فيها عن باقي العالم. فكان ميول الناس للبس نفس الملابس و التي تعبّر عن نفس الشيء. لذلك أصبحت أمريكا بلد سراويل جينز و ليفايز الزرقاء. و قال بعض الإنكليز على سبيل المزاح إن "أمريكا هي البلد ذو الإمكانيات التي لا حصر لها حيث لم يجد شيئا جديدا ما كان قديما". فوجد تحت هذا التنوع كل ما يتعلق بالتعبير عن النفس القيم الأساسية التي تفترض أن تكون مشتركة و هي: تحدث بنفس اللغة و عمل نفس الأشياء و لبس نفس البدلات و هكذا عرف المرء أن يكون الغير و أحدا من "صفوف الأمريكان ". أما ملابس المرء في إنكلترا و كذلك في أوربا لم تكن صفة لهذا الشخص فإذن قد كان من الممكن أن يلبس أصدقاء المرء الملابس الغريبة للغاية جدا حيث أن أعداء المرء قد لبسوا الملابس العادية. فبالطبع في جميع أنحاء العالم الصداقة تعني الاشتراك في الأشياء. ولكن توجد هنالك فروق دقيقة. في أمريكا كما شاهدنا أن كلمة "صديق" تعني هو الذي مثلنا. أما كلمة "صديق" في إنكلترا تتعلق بصورة كبيرة بالتجارب و العمل المشتركة. و هذا يعني أن المرء يعمل نفس الأشياء سوية مع العلم بأنه هنالك مجال واسع لأصدقاء غير متشابهين. فمفهوم الصداقة الأوربية يختلف عن مفهوم الصداقة الأمريكية. فعمل شيء مشترك هو شيء جميل. و إن جوهر الصداقة هو الثقة المطلقة بالإخر و الأمر الذي غير كيان مثل الصديق. بل و على العكس من ذلك فالمبدأ هو أن الصديق يختلف عن فلان و أن الصداقة هي تحالف مع الآخر للبحث المشترك عن الفروق التي بطبيعة الحال ليست من صنف الفروق التي تنبغي أن تمحى من رأي الأمريكان.

أما الكنديون الذين يتراوحون بين وجهة النظر الأمريكية و الأوربية فهم طوروا وجهة نظرهم الخاصة حول الصداقة. كما في أمريكا الكنديون لديهم أن التشابه هو أحد الفضائل و بالشكل الخاص تقاليد البيض البروتستانتيين الانجلوساكسونيين. و بالعكس فإن جيرانهم في الجنوب يعرف الكنديون كثيرا من الأمثلة عن الثقافات الأخرى لمناطق الجوار ليقبلوا هذه الميول حول التشابه بدون حرج. فمن ثم برز نوع من الشعور العميق بالتسامح بعدة طرق. كما هو الحال في السلوكية الإنكليزية. الكنديون شددوا على أهمية اشتراك الخبرة. و عند الإنكليز يوجد شعور كبير بعدم جرح شعور الآخرين. فهناك مواضيع كثيرة لا تطرح للمناقشة إلا في الحالات التي تستدعي الحاجة لها. شكرا للعادات الإسكتلندية التي لا تخطيء حول أحاسيسهم المستقيمة و النظيفة فكانت هذه الصراحة عند الكنديين غالبا ما فقدت في عادات الإنكليز.

كنتيجة لذلك, فإن مفهوم الأمريكان حول الصداقة العميقة هو إثبات لتشابههم. أما الأوربيون يرون الصداقة العميقة كعملية تمييز أكثر للفروق, و أكثر للتمييز و بالإمكان كلما كبر المرء كلما زاد الاختلاف. بالطبع, فإن الأمريكان ابدوا بتعهدهم للتشابه, بقيت الحرية الشخصية التي منحت لهم لعمل "ما يعتقدون به" ففي بعض الأحيان و على ما يبدو لا توجد لديهم أي مشكلة حول "الاختلاف" مع الأوربيين. ولكن بالنظر إلى نقاط الاختلاف الجوهرية حول الصداقة هذا يعني انه في النهاية اسهل للأمريكان أن يتصادقوا مع الأوربيين, عكس الأوربيون ليكونوا أصدقاء مع أمريكا. فالأمريكان يبحثون عن ناس موثوقين لأنهم مثلهم أو على الأقل يبدون مثلهم. أن الأوربيون يبحثون عن عمق تفكير الناس و قوة الاكتشاف و التطور و الاختلاف و الذين يمكن أن يوثقوا بهم عندما تخلى هذان الشخصان عن تشابههما الشكلي لكي يكتشفا عما يوجد تحت هذه الطبقة السطحية.

أما أمريكا فهي تسعي إلى تفرد التميز و بالشكل الخاص فيما يتعلق بالمظهر الفردي مما أدى إلى التنوع في ارتداء الملابس مثل القمصان المرسوم عليها المربعات العريضة و عمل بعض التسريحات الخاصة بالشعر لكن هذا لا يعني أن يتجاوز تلك الحدود المرسومة.

ففي كل المدن الأمريكية الأصيلة فإن فن العمارة أساسا هو نفسه في كل الأماكن. لذلك فإن محيط البناء يبقى بدون تنوع. إن هذه الأصول السيكولوجية سماها العالم فيما بعد "تشكيل ماكدونالدز" [McDonaldisation] . فحدد هذا النوع من التشابه لدرجة ما حركة السياحة الأمريكية. فبسبب إتباع المدن الأمريكية لقاعدة "إن رأيت مدينة واحدة فرأيت جميع المدن" لم يميلوا الأمريكان لتطوير قطاع سياحة عندهم حتى يسافر السائح من قرية خلابة إلى أخرى عكس ما كان عند الأوربيين. لذلك حددت السياحة هنالك بدرجة رئيسية بطيعة المناخ. لقد كانت ولاية فلوريدا المكان السياحي للأمريكان ليمضوا فصل الشتاء فيها بسبب دفء مناخها و ليس بسبب جمال بناياتها. أما الأوربيون و الذين كانوا في البحث إلى أشياء مختلفة عن أشيائهم فلم يهتموا بزيارة المدن أو الكبرى أو بزيارة بعض المتاحف لمشاهدة بعض القطع الفنية و إنما كان اكبر اهتمامهم بزيارة المحميات الطبيعية في ولايات يوتا و نيفادا و كاليفورنيا و كولورادو حيث كانت هذه المحميات خارج نطاق التشابه.

فأدل على ذلك أن لم تكن تلك المدن و الأدلة الأخرى للتشابه راكدة. بل على العكس من ذلك فأوجدت نفسها على هامش حدود الحضارة و التي لا تزال تنمو و تتسع و كانت تجوز تتسع و تتغير على شرط أنها تتسع و تتغير سوية. فأثارت هذه الظروف أحاسيس كبيرة بالحرية و قوة دافعة في عالم فن العمارة مما أدى إلى مساهمات مهمة لفن المعماري الأمريكي و بشكل خاص في المدن الكبرى و بالأخص فيما يتعلق بالبناء على مستوى فردي. أما المدن الكبرى فحاول المعماريون أن يتبعوا التشابه الذي كان موجودا في المدن في الأوقات السابقة. فكان هذا أحد الأسباب للأمريكان للرجوع إلى شبكات خطوط اليونانية للبناء . و لذلك كانت الشوارع و البنايات نفس الأشكال المستطيلة و المربعة. فلم يكن من قبيل الصدفة أن المعماريين الأوربيين كانوا ناجحين جدا في هذه الظروف و منهم الهولندي ميس فان دار روا الذي ابتدع الفكرة النيرة لتطبيق تصميم الحواجز ذو البعدين مثل المربعات و المستطيلات إلى الأبعاد الثلاثة. بالرغم من وجود العمارات المشهورة في المدن الكبرى مثل نيو يورك و شيكاغو مثل عمارة كريسلر أو العمارات الغريبة من تصميم الكندي جيري فكان م الإحساس المسيطر هو أن العمارات تشابهت فيما بينها و اختلفت اختلافا جوهريا عن العمارات في المدن الأوربية مثل روما و باريس و لندن و برلين و غيرها.

فكانت هناك فروقا أساسية أخرى بين المدن الأوربية مثل روما و بين المدن الأمريكية مثل نيو يورك و هي تجاوزت الفرق الواضح و هو أن روما مدينة اقدم من نيو يورك مع تعلق الأمر لذلك التفصيل. فسميت مدينة روما "المدينة الخالدة" حيث أن سكانها قرروا باحتفاظ جزء كبير منها بدون التغيير (حفاظا على تراثها القديم) حتى و لو كانت مهدمة بالتعبير الحرفي. و من ثم بنيت كل من خطوط الباصات و المترو و العمارات حول و فوق و حتى تحت المركز التاريخي و في نفس الوقت بقى هذا المركز موضوعا للدراسة و البحث الأثرى بجميع الوسائل المتوفرة لكي يحفظ العلماء على الفروق المعمارية السابقة و الحالية.

اختلف هذا الوضع اختلافا حادا عما موجود في نيو يورك و التي عكست الاختلاف الموجود بينها و بين روما. و من ثم أشار التاريخ إلى العمارات التي انعكست التعبير الشخصي للفرد. فاصبح المبنى الذي احتضن مجموعة فريك رمزا تاريخيا لذلك ولكن لم يحس المرء الجو التاريخي الذي أحس به في مدينة روما مثلا أو حتى في حي تاريخي.

لقد تحول سكان الشواطئ الشرقية و الغربية و الأحياء الفقيرة المعمولة من الصفيح و الموجودة في الغرب الأقصى إلى السكن في ناطحات السحاب الموجودة في أمريكا اليوم. فلم يتغاض الأمريكان بالطبع عن التغيرات الكبيرة السائدة. فاسترجع الأمريكان التشابه الكبير الذي تمتعوا به في الماضي و أحسوا بحنان إلى تلك الفترة. فقد كان رد فعل الأوربيين لهذه المسألة العامة إنشاء المراكز التاريخية و التي أشارت إلى تاريخ و زمن بنائها. لقد رأى الأمريكان في الفكرة الأوربية حول وضع دالة حول تاريخ و زمن بناء العمارات على أنها فكرة قديمة يجب أن تزال و تُبنى محل هذه العمارات القديمة عمارات جديدة. لقد كان المفهوم الأمريكي"It's history" يعني أن شيء ما هو من التاريخ و يجب أن يزال و تبنى بنايات و مدن جديدة.

لقد عرف والت دسني أن حنان الأمريكان للتشابه الذي تفوقه الزمن انعكس على رغبات كبيرة الأمر الذي قد تنتج عنه أعمالا تجارية جديدة. أما الأوربيون فحاولوا الحفاظ و إعادة بناء المدن التاريخية بينما طبق والت دسني مثال التشابه بأثر راجعي. فانشأ البنايات التي تركت للمشاهد انطباع البنايات في الغرب الأقصى الأمريكي في الأوقات الماضية. لقد حاول والت دسني إزالة البنايات القديمة و إعادة بنائها بأحاسيس و تراث قديم. فاختياره لأي مدينة قد تعيده إلى التنوع في الخصائص الأوربية. اختياره لبناء أي شيء ليعكس أي مدينة لقد ساند الالتزام الأمريكي العميق للتشابه.

إن والت دسني كان عبقريا حيث طُبقت فكرته في مراحل الزمن الثلاثة و هي: بلد الخيال [الماضي] و بلد الحدود و المغامرات [الوقت الحاضر] و بلد الغد [المستقبل] و أصبحت هذه البلاد الأربعة: بلد دسني. نتيجة لظهور بلد دسني قيام مركز أبكت لدراسة المستقبل. من حيث المظهر كانت هذه العوالم تخدم أذواق الأمريكان بل من حيث مستو اعمق سيطر بناء دسني على جميع الخبرات الشخصية و اخفت من الأفراد الروح الشخصية و شكلت تهديدا لفكرة الخبرات "الشخصية" بالمعنى الأوربي. أخيرا كانت وسيلة انتعاش بإحساس التشابه المشترك عند الأمريكان الذي تذكروه تذكرا مبهما. و لذلك قد يسمى بلد التاريخ ببلد الخيال. فأرجع بلد الخيال زواره إلى زمن كان فيه التشابه كاملا. مع أن بلد التاريخ كان قد أرجعهم إلى زمن برز فيه الفروق بين القديم و الحاضر برزا مربكاً.

فمن حيث المظهر فقد خلق والت دسني نوعا جديدا من التسلية التي تطورت إلى فكرة الحدائق المسلية ذات المواضيع الخاصة و التي انتشرت إلى جميع أنحاء العالم. على مستوى اعمق أظهرت هذه الحدائق جوهر السعي الأمريكي للتشابه و الذي كان المبدأ الأساسي لتعامل الأمريكان مع القيم و الثقافة. فأشار علماء الاجتماع بحق إلى نظام ماكدونالدز و دسني. لقد كانا هذان النظامان استيعابا لجوهر علم النفس الأمريكي و تعبيراً عنه. فالاثنان ركزا على البحث إلى التشابه. إن نظام ماكدونلدز كان متخصصاً بوجبات الأكل السريعة في الوقت الحاضر. أما نظام والت دسني فهو يعبر عن الماضي و الحاضر و المستقبل.

فطالما كانت للدول حدود واضحة فلم يكن هناك "فرق كبير". فرأى الأوربيون أن تعامل الأمريكان بطريقة مختلفة لديهم و كان هذا الاختلاف مثالاً للتنوع. لقد ظهور وسائل الإعلام و الاتصالات الحديثة إلى تجاوز القيم الذاتية من بلد إلى آخر فأدت هذه الظاهرة إلى ظهور مرحلة جديدة من التشابه. لقد أضفى السعي الأمريكي إلى التشابه إلى تغيير جميع الأشياء الأخرى حسب المقولة الإسبانية:
. It changed the whole *enchilada*

كانت سيكولوجية التشابه متأصلة في الروح الأمريكية و هي كانت مصدر الإلهام لماكدونلذز و دسني في المنظر الطبيعي الأمريكي حيث ألهم كثير من الناس المهمين فيما يتعلق بالتعبير عن النفس. و لكن عندما هذه السيكولوجية من المستوى الشخصي إلى المستوى السياسي فظهرت إمبريالية القيم. لذلك استجاب الكنديون إلى التفكير في الاندماج الأمريكي فسعوا إلى مجتمع الثقافات المتعددة. و لذلك أصبحت مدينة تورنتو مكان سكن لأكثر من 72 جنسية و التي حافظت على ثقافتهم فيما يتعلق باللغة و الأكل و الدين. فتوجد في هذه المدينة لوحات مكتوبة بكل من اللغتين الإنكليزية و الصينية حيث توجد في أحياء أخرى في المدينة لوحات مكتوبة بكل من اللغتين الإنكليزية و اليونانية. و لا يؤدي هذا الحل بشكل رئيسي إلى التنوع في مستوى التجارب بقدر ما يؤدي إليه في المستوى المعماري.

عندئذ أصبحت سيكولوجية التشابه الأمريكي هذه جزءا من السياسة الأمريكية و التي تم تصديرها إلى أوربا و باقي العالم بشكل متعمد فكان أول رد فعل اجتماعي هو رد فعل فطري من الدول التي لا تقبل أن تفرض عليها قيم و ثقافات على الدول الأخرى و التي لا ينبغي أن تتدخل للبلد الأخر. فادى هذا التدخل إلى المظاهرات الواسعة و ما صدر في الصحف من تنديد باجتماعات ج 8 و البنك العالمي و بجميع المنظمات المتعلقة بعولمة الاقتصاد. فكانت هذه الاحتجاجات ضد السياسة الأمريكية أيضا احتجاجا على جميع الدول التي حاولت أن تصدر قيمها إلى خارج حدودها. فادت حساسية هذه المشكلة إلى قيام الاتحاد الأوربي بتجنب تدوين موضوع الثقافات و مناقشتها على جدول أعماله. بالرغم من إن هذا الموضوع قد أحتل 22 من 24 نقطة من جدول أعمال المؤتمر.

لم يفهم الأوربيون الفرق الكبير بين التنوع الذي كان أساس قيمهم و بين البحث الأمريكي إلى التشابه والذي سمح بجزء من التعبير الشخصي – إلا بعد عبوره المحيط الأطلسي. فاصبح التنوع الثقافي موضوع الساعة. فأنجبت أمريكا أفرادا و لم تعر اهتماما إلى التنوع. فارتفعت سيكولوجية التشابه لماكدونابدز و دسني إلى مستو عالي حيث مد نفوذه إلى أوربا و بالتالي عرقلت و هددت هذه السيكولوجية الكيان الشخصي الأوربي.

لذلك فإن قاعدة ماكدونالدز و دسني في النهاية ستمحي التاريخ فكان هذا الميل منعكسا في تأليف الأستاذ فوكوياما في جامعة هارفارد الأمريكية بعنوان: نهاية التاريخ. لم يتوافق هذا المبدأ مع مبدأ التراث الأوربي و الذي بُني على شكل متواصل. كان مبدأ ماكدونلدز و دسني يراعي النظرية الفردية ولكن على مستوى أعمق كانت هذه النظرية تواجه العالم بطريقة التشابه و تعامل الناس بطريقة متشابهة على أن هؤلاء الناس أفرادا بالرغم اختلافهم في أفكارهم و ثقافاتهم. و بهذا المعنى كان مبدأ ماكدونالدز و دسني يفضل العام على الخاص. فكان مبدأ ماكدونالدز و دسني منهجا للناس ليكونوا أفرادا غير انهم درسوا بالفعل أن يكونوا متشابهين و يوافقوا المعتاد أو بغير تعبير: أن يكونوا عاديين. فالذي لم يوافق المعتاد بشكل كاف فهو مجنون. لهذا السبب كان علم النفس و التشخيص النفساني و مراكزه أكثر شهرة في أمريكا عما في أوربا.

فعلى العكس من ذلك فكان قصد السياسة الأوربية إعطاء إطارا ضمن درجة ما من الموافقة بين الناس و بالتالي تشجيعهم بكيان مختلف عن البعض. و هذا هو سبب قيام الأوربيين بمتابعة الدروس التي تؤهلهم لمبادئ المواطنة. فبعد متابعة هذه الدروس شجعوا ليصبحوا مختلفين بقدر ما يريدون و لكن ضمن حدود القانون طبعاً. لذلك الكثير من الأفراد تصرف بطريقة غريبة و جنونية خلال فترة الكرنفال (احتفال كاثوليكي يلبس المحتفلون فيه ملابس تنكرية مختلفة) بدون أن يعتبروا مجانين. فتباهى النظام الأمريكي بالحرية الفردية الكثيرة لكن كان هذا النظام في سلوكه الفردي خطراً ليكون المرء غير اجتماعي أو ضد العادات و التقاليد الاجتماعية. لذلك أعطى

الحل الأوربي لحالة التمييز و التنوع قسطاً أكبر في روح الإنسان فكان من الممكن تطوير الوعي الاجتماعي و الفردي.

فأثرت هذه الفروق الأساسية بين مبدأ مكدونالدز و دسني الأمريكي و البحث الأوربي إلى التنوع في جميع الميادين و حتى الشؤون الخارجية. فلم يقدر الأمريكان الأفراد الذين لا يتحدثون اللغة الإنكليزية بدرجة من الكفاءة يكون فيها مقبولاً للتحدث. و على العكس من ذلك فلم يعتبر الأوربيون أنفسهم مقبولاً للتحدث إلا و حتى يجيدوا في اللغة الأجنبية. لقد قاس الأمريكان المجتمعات التي خارج حدود بلادها بنفس المقاييس في داخل مجتمعهم. كنتيجة لذلك فإن كتاب الحقائق العالمية للمخابرات الأمريكية أعتبر مصدر ممتاز للإعلام و الإحصاء العوامل التي تخص أمريكا من حيث السكن و المصادر الطبيعية و الطاقة. ولكنه لا يشير إلى أي شيء من العوامل التي تكون خاصة لها و على سبيل المثال : مكتباتها و مجمعات و غيرها. وعلى العكس من ذلك تميزت الدراسات الأوربية حول البلاد الأخرى في كشفها الأمور المتميزة المتعلقة بالحضارات الأخرى و غالبا ما هي الأمور التي نسيها سكان هذه البلاد الأخرى. لذلك فإن حروف الهيروغليفية و الحضارة المصرية القديمة لم تكتشف من جديد إلا بمساعدة الخبير الفرنسي شامبليون. كما أعلن الفرنسي باليو و شركائه في مدرسة الشرق الأقصى في مدينة هانوي عن اكتشاف على عجائب كمار و التي بلغت قمتها في معابد أنكر وات.

إن العلماء النظريين (علماء الغرف) مثل الأمريكي هنتندون و هو المحسوب على المفكر زبيكنيو برزنسكي و الذي كتب كتاباً حول التعارض بين الحضارات و إعادة تكوين نظام عالمي جديد (*Clash of The Civilization and the Remaking of the World Order*) و الذي افترض فيه إن الأديان هي اصل الشر و من ثم فإن الأديان المختلفة هي اصل المشاكل الجديدة. لقد ناقشنا في الجزء السابق أن هذا الافتراض يهمل بشكل مطلق العقائد الأساسية لكل من الدينين المسيحي الإسلامي و التي تتضمن التواضع و الحب و الاحترام و هذه العقائد بعيدة عن التفسير الأمريكي المتطرف الخاطئ. فيجوز لنا السؤال السقراطي(طريقة سقراط في الأسئلة), إذا كان مصدر المشاكل الحقيقي – فهذه الأفكار شيء ما غير متعلق بالشرق الأوسط الذي هو مجرد مكان النفط. و ليس فيما يتعلق بالدين. فيما يخص العقائد و الأفكار فليس النقاش حول الدين. على مستوى اعمق فإن النقاش هو حول سوء التفاهم العالمي الناتج عن وجهتي النظر المختلفتين للغاية في ما يتعلق التمييز و هي: 1) فكرة التمييز التي تعتبر سلبية و تفترض إزاحة الفروق و 2) افتراض التمييز كشيء إيجابي و قد يكون مصدر إلهام للتنوع.

بأبسط القول: يشكل هذا التناقض بين التشابه و التنوع خطرا لاشتعال النزاع بين التشابه في أمريكا و التنوع في أوربا و باقي العالم. فإذا كان هذا هو الحال فقد لا يتعلق النزاع المحتمل بين الثقافات بالإرهاب الغير المنظور بل من سخرية الأقدار هذه هو أن ينتج عن نقل الافتراضات و المثل العليا الأمريكية في ميدان التعبير الشخصي - حيث قد تكون فاعل محرّر- إلى ميدان السياسة الوطنية - حيث قد تشكل خطرًا لسيادة الدول الأخرى. فهي تضع التقاليد الثقافية للناس في جميع أنحاء العالم موضع شك و من ثم تشكل شبح مثال اللغة الواحدة و الثقافة الواحدة التي تعتبر قصيرة النظر و التي تهدّد التنوع الثقافي.

إذا كانت "إعادة تكوين النظام العالمي" فعلا إعادة لتكوين العالم حسب مثال التشابه الأمريكي طبقاً لمبادئ ماكدونالدز و دسني فقد تؤدي إلى فوضى عالمية و قد تشكل تهديدا لمستقبل الحضارة. فليست هذه الهموم متجهة للأمريكيين "شخصيا" فهي إذا ليست مضادة للأمريكان بل هي مجرد اعتراض لكبرياء دولة تفترض أن قوانينها و أنظمتها تطبق لجميع الناس و أن جميع الناس ليس لهم الحق في إبداء الرأي حتى و لو 96 قي المائة من الناس غير أمريكان.

لقد تعكّرت مشكلة التنوع ضد التشابه و التي تشكل مصدر سوء التفاهم لان مؤيدي الجهة الأمريكية هم يشكلون مجموعة صغيرة تمثل تفكيرًا متحيزًا للغاية مقابل المسألة. فهذه المجموعة الصغيرة التي تنادي باسم الدين المسيحي أخذت موقفا متطرفا يتعارض مع المثل السلمية لكل من المسيحيين و المسلمين. فان هذه المجموعة الصغيرة الناطقة باسم الديموقراطية تعمل بصورة حكم القلة. إن هذه المجموعة الزاعمة بالدفاع عن الحرية تضعضع حرية كل من الأفراد و الدول بصورة منهجية في سعيها النهائي إلى حرية الامتياز المتحررة من قيود القانون. تحت ذريعة التجارة الحرة النبيلة تلح هذه المجموعة على الناس الآخرين على زوال جميع العوائق والجدران حول التجارة الدولية بينما هم يعيشون في مجاميع محوطة و في نفس الوقت يتغاضون عن بناء الأسوار بين الفلسطينيين و اليهود.

في زمن من الأزمان كانت أمريكا تزعج و تلهم العالم بفكرتها القائلة إن المرء ينبغي عليه الصراحة عند التعبير عن أفكاره و معيشته لها. فإن ممثلي أمريكا الجديدة يسببون لها سمعة سيئة لأنهم ليسوا ملتزمين بأقوالهم و إن أعمالهم ليست تمجيدا للناس أو الوطن ولكنها لمكاسبهم فقط. فجعلت الوجه الجديدة لأمريكا هذه الغرائب الشخصية سياسة وطنية و جعلت مصلحة القوم الأمريكي مصدر غرائب شخصية من النوع الأقل نبلاً. فلذلك تزايدت حيرة العالم و في بعض الأحيان غضب العالم – فلم يواجه هذا الغضب للأمريكان أنفسهم - بل هو موجه إلى الصورة المشوهة التي برزت بعد التصويت الديموقراطي من قبل حوالي نصف المنتخبين – و يقال انهم كانوا اكثر من النصف - لطريق جديد في السياسة.

فلنرجع إلى الأستاذ الكندي مكلون و فكرته "القرية العالمية" فتعني أن الأمريكان يريدون أن يعبروا عن تفكيرهم هو واحد في كل مكان غير أن الأوربيين يميلون إلي إشراك الأشياء المختلفة التي اكتشفوها. فهذا لا يعني أن الشخص الأمريكي ذو الأحاسيس المتطورة لا يستطيع التحدث مع الشخص الأوربي. ولكن هذا يعني أن في حالة التحدث عن الأشياء التافهة فلا يستمعون بعضهم إلى بعض (أمريكا في واد و أوربا في واد أخر).

القيم

لقد لاحظنا العواقب الكبيرة فيما يتعلق بطريقة رؤية العالم و سمعته و ذوقه و إحساسه التي تنتج عن القرارات البسيطة المتعلقة بالتشابه و التنوع التي. فهذه الفروق هي مكونات جوهرية في ثقافة أية بلد. فقد يحدد المرء هذه الخصائص على مستويات مختلفة و هي: الوطن و الإقليم و البلدية. فبعض الدول و نذكر على سبيل المثال ألمانيا فهي تشدّد على الدور الخاص الذي يلعبه الإقليم أو الولاية (Land). و هناك من الدول مثل إيطالية حيث ترى كل قرية نفسها مركز العالم كما تسمي مدينة فولينيو – و هي مدينة صغيرة في إقليم أمبريا - مركز العالم. على رغم الشائعات الرائجة بان القدس مركز العالم. فالقرارات التي تتخذها أي دولة في هذا الإطار هي عبارة عن بعد قيمها.

فيما يتعلق بهذا الموضوع هو إبداء رأي المرء في مثل هذه الشؤون فمن ثم قررت كل دولة لنفسها المقدار الذي تريد أن تكون به دولة راعية لهذا المقدار و بالتالي المقدار الذي تريد توفيرها من مستوى معين من الإعانة الاقتصادية للفرد (الرعاية الاجتماعية). نهائيا فقد كانت هذه الاختيارات هي التي شكلت المجتمع و التي أثرت على ثقافته و المقدار الذي اختلفت الدول به. فكان منذ القديم من طبيعة أوربا العناية بالمجتمع ككل غير أن اشتهرت أمريكا دائما بانفراديتها. فكانت عظيمة عند تسلق فلان السلم الاجتماعي (الأشخاص الذين يكسبون المال).أما الذين لا يكسبون المال (العاطلون عن العمل) فإن معيشتهم فستكون على أكياس القمامة. لذلك كان هنالك بعدا آخر على مستوى العمل اليومي. فكان من المعتاد أن يعيش صاحب العمل في نفس المدينة التي يعيش العامل فيها. فعند وجود أي مشكلة فيجتمع كل من العامل و صاحب العمل لكي يحلا هذه المشكلة. فكيفية هذا الحل اختلف من بلد إلى بلد.

فساهمت كل من هذه المواقف المختلفة في هذه السلوكية و درجة الصراحة التي يفرض على المرء التعامل بها والتي بالتالي خلقت قيم البلد و ثقافته و التي تنوعت فيما يتعلق بالتعبير الفني مثلا و التي تمتعت بالاهتمام الخاص: و منها الرسم و النحت و الموسيقى و المسرح و الرقص. إن أحد الأسباب لوجود الحدود للبلد هو ضمانة الحفاظ على قيم هذا البلد داخل هذه الحدود. فعند تجاوز حدود بلد الأم و الذهاب إلى بلد آخر فإن جميع الأمور الحياتية ستكون مختلفة عن بلد الأم. فإذا لم يقبل المرء قواعد الحياة في البلد الآخر ببساطة لم يذهب إليه مطلقاً. و من المحتمل أن يعود إلى شواطئ إيطالية أو إلى كوخه في جبال الألب في النمسا. عاشت الفروق.

تصدير القيم الغير متعمّد

إحدى اكثر الأبعاد المعقدة و الغير المبحوثة في مجال الوسائل الجديدة هي الطرق التي جعلت فيها الدول المستقرة ذات الحدود الواضحة. فمن الصحيح أن الحروب غيرت حدود الدول ولكن تذللت هذه المشكلة في الفترات اللاحقة للحرب.

فغيرت الوسائل الجديدة و السوق العالمية هذه العلاقات. فلا يرى الكثير من العملاء أصحاب عملهم. فعلى سبيل المثال من الممكن تماماً أن يعمل العامل في مبنى في أوربا غير أن صاحب عمله يدير المكتب الرئيسي في أمريكا. و لهذا فقد تكون القرارات التي تتخذ في المكتب الرئيسي خاطئة و بالتالي فإن العواقب ستكون كبيرة. فإن ما يريده المكتب الرئيسي هو الاندماج مع الشركات الأخرى لغرض الحصول على أرباح تقدر بمليارات

الدولارات و لا يهمه فقدان كثير من عمال لوظائفهم. فإن هذا الاندماج قد يؤثر على القيم الشخصية للفرد بسبب فقدانه للعمل مما يؤثر على ثقته بحكومته و من ثم ثقته في النظام الاجتماعي.

كما ناقشنا في الجزء السابق فكان قرار فصل فلان من وظيفته متعلقًا بالأفكار السائدة حول القيم و العادات. فطالما أنها تطبق داخل حدود البلد الذاتية فليست هنالك أية مشاكل حيث أن قرارات أمريكا المتعلقة بالاقتصاد تؤثر بشكل مباشر على باقي العالم بسبب عولمة الاقتصاد. فنتيجة لها بالطبيعة الحال فإن هذه العولمة ستسبب لكثير من العمال فقدان وظائفهم و مداخيلهم الشهرية. إن نقطة الخطر التي تختبأ في هذه القرارات الاقتصادية هي العلاقة مع مجموعة أفكار في أمريكا حول النظام الاجتماعي ككل: مثل ما ينبغي أن يكون مقدار تعويض العمال و مقدار تأمينهم (لتكاليف المرض) و للتقاعدهم و مقدار حقوقهم و بالتالي مقدار عناء صاحب العمل مقابل العامل و ما يدفعه من أجرة معينة مقابل عدد ساعات العمل التي اشتغلها العامل. فبكلمات أخرى: كل قرار اقتصادي من مدير أمريكي الذي يعتني بالمكاتب خارج أمريكا ليست مجرد تطبيق مبادئ اقتصادية و إنما هي قد تكون بشكل تدريجي التدخل في قيم البلد الآخر و مع انه ليس متعمدًا في اغلب الأحوال.

فإذا إن أدت قرارات المديرين إلى فقدان آلاف من العمال خارج أمريكا لوظائفهم. فإن الخطر من هذه القرارات هو عبارة عن فرض القيم الاجتماعية الأمريكية على تلك البلاد بمعنى ضمني. لنأخذ مثل جنرال موترس و التي تأسست في مدينة ديترويت الأمريكية فأحست بانهيار صغير في اقتصادها في ديسمتر 2004 مما أدى إلى فقدان 10.000 عامل لوظائفهم. كذلك هو الحال في شركة أوبل الألمانية و التي (والتي هي مملوكة من قبل شركة جنرال موترس. فتلاحظ مثل هذه الأنماط في أماكن أخرى في العالم.

فتوحي هذه الأمثال أن الدخول الجسدي من قبل الجنود الأمريكان في أفغانستان و العراق هو بالفعل غزو اكثر مقلقا يعني هو عبارة عن إمبريالية غيبية (فوق الطبيعية) فلا تخص فقط الشركات التي ترغب كسب الأموال الجديدة على الأسواق القديمة و إنما كانت هنالك فكرة خفية لفرض مناهج أعمالها و قيمها – أو نقصها – على المواطنين. مأساة الأمريكان المتربين في ثقافة التشابه و التي تفترض أن الموافقة قد يحصل المرء عليها من الأصدقاء الذين "مثله" قلما يظنون أن مثل هذه المشاكل قد تبرز. فمن سخرية الأقدار يميل الشاطرون الذين قد يشعرون بالتوترات - نظرًا إلى قيمهم و تربيتهم – على الفور إلى الخوف من شعور معاد الأمريكان في الأشخاص الذين يظنونهم أصدقاء باطلين.

إضافة إلى سوء التفاهم المتبادل فليست هذه الأفعال مجرد تهديد لوظائف 1000 عامل الذين "يلزم فصلهم عن وظائفهم" لكي تجعل من الاندماج "مفيدًا". فإن هذه السلكية ستؤثر على مئات السنوات من العادات و التقاليد و الثقافات فستضعفها و قد تهدد هيكل الحضارة ككل. فتحتوي هذا السيناريو على شيء أكثر خطورةً من الإرهاب الغير المتوقع مثل تفجير الباصات أو القطارات أو الطائرات أو عمارة ما. فإن الخطر الحقيقي هو ما يختبأ في المغامرين المفرطين في الجرأة الذين يظنون أن ينقذون العالم في أعمالهم و إنما في نفس الوقت يخلفون وراءهم خرابًا و دمارًا اكبر مما يوحي استعمالهم القنابل المزعومة "الذكية" و المدافع الثقيلة.

المدنية أو العسكرية

لقد ناقشنا التحذيرات التي عبر عنها الخبراء في 1995 بالنسبة إلى أن التمويل كان محدوداً. فإن زيادة تخصيصات الجيش و التركيز على المكاسب السريعة جعلت الموقف أسوأ. طالما مثل هذه القرارات أثرت على الذين سكنوا داخل حدود البلد فليست هنالك أسباباً كثيرة لأية رد فعل حتى و لو كانت هذه الأمور بنظر المرء قد تحدث بصورة مختلفة في بلد المعني.

و لكن بعد بروز وسائل التخاطب الجديدة و تصدير القيم الغير المقصود فقد تغير العالم صدفة. فكان زمن من الأزمان راقب فيه وزراء الخارجية و السفراء التصديرات و الاستيرادات كما راقبوا الميزانية. ففي الوقت الحاضر يلوح في الأفق شبح عدم التوازن في القيم الغير المرئية و الذي قد يكون اخطر من شبح عدم التوازن في السلع الملموسة. فإذا اصبح بلد ما عسكريا بشكل مفاجئ فقد تكون هناك العواقب الوخيمة لكل من مجالات التعليم و الصحة و حتى للنظام الاجتماعي في البد. فعلى سبيل المثال دولة زمبابوا. و لكن في ضوء القيم المصدرة بشكل متعمد أو غيره, فقد أصبح التدخل لدولة مجاورة بطريقة المجاملات. فأصبحت هذه الشؤون غير مرغوب بها من الدول المجاورة. فادا كانت هذه الدولة أمريكا على سبيل الصدفة فإن بعض القرارات الداخلية التي تتخذ داخل أمريكا و التي تخصها قد تؤثر على باقي العالم. فإن القرارات المتخذة في واشنطن حول تكامل التصنيع

العسكري أو الضغوط على التصنيع العسكري هي لا تؤثر على معاملات الشعب الأمريكي بالضرائب أو الحكومة أو القيم و الثقافة فحسب بل هي تؤثر على العالم كله.

ففي السنوات الأخيرة طرحت للمناقشة فجأة كل من مواضيع تقويم أموال التقاعد و قلة الشعور بالبقاء في العمل و ترك الأفكار التقليدية المتعلقة بدولة الرعاية التي تضمن لكل واحد حياة محترمة. فرغم أن الأمن الوطني اصبح قولاً إلا هيا يوميًا فاصبح الأمن الفردي موضوعا للتقويم فيما يخص حقوق الإنسان و وظائف العمل و المساعدة الاجتماعية و أموال التقاعد. إن جميع ميادين الاجتماع أصبحت موضوعا لتقليل النفقات و خصوصاً ميدان الصحة و مساعدات الرعاية الاجتماعية و الرعاية. لقد اتخذت بعض الدول قرارات هي ليست راغبة فيها كان لها تأثير سلبي على مواطنيها و لكن هذه القرارات كانت بتأثير من القيم الخارجية الغير المرئية.

في سنة 2004 شاهدنا على شاشة التلفزيون البريطاني لمحات حول تقويم أموال تقاعد الموظفين ذوي الدرجات العلية - و هم المندرين اللابسون القبعات الإنجليزية - بسبب الخطط و النماذج من الجانب المقابل على المحيط. فقط انقلبت حكومة حزب العمل على المندرين الذين سيطروا على البلد من خلف الستار كما كان الحال في القرون السابقة. و إنما ما يحدث و حسبما يقوله بعض الناس بسبب بعض القرارات و النقط الأمريكية المتخذة حول المجتمع المدني أو النظام العسكري قد تؤثر في وقت من الأوقات على باقي العالم. في السابق كان الرؤساء مشهورين بأقاولهم مثل القول: "هذا أمري". فنظرًا إلى القرية التي هي العالم أو العالم الإلكتروني الذي بمعنى ما ليس له حدود فهناك المزيد من الناس الذين يقدر أن يقولوا: "هذا أمري". فإذا كان الرئيس الذي يدفع الحساب فيلقيه في نفس الوقت على عواتق الناس الآخرين. إذا اهلك المال على الحفلات العسكرية ف "يتحمل الجميع أعباء التكاليف".

<u>الحياة اليومية أو حالة الطوارئ كحياة يومية؟</u>

فعند طرح هذا السؤال للمناقشة ينبغي أن نفكر في مشكلة لا تتبين فهي: الاستعداد لإعلان حالة الطوارئ كجزء من الحياة اليومية ما يعني أن الحياة العادية بالمعنى التقليدي أصبحت غير ممكنة فيما بعد. فإذا كان هو الحال هكذا فلم تكن هناك حالة طوارئ. و من ثم يعلم الناس بشكل غير واعي و في بعض الأحيان بشكل غير مرغوب به و بشكل حتمي فيما بعد أن حقوقهم تضعضعت و تسلبت منهم. ففي الفلم *عدو الوطن* (Enemy of the State) من سنة 1998 اغتيلت شخصية سياسية بارزة لأنه رفض تأييد قانونًا جديدًا للمواصلات السلكية و الخصوصية. أما الحياة الحقيقية فقد كان المصطلح "عدو الوطن" منتحلا من النظام النازي في الحرب العالمية الثانية. أما الحياة الحقيقية فتبنت في سنة 2004 قانون للمواصلات السلكية و الذي لم يذكر أي كلمة حول الخصوصية في عنوانه بل الذي تضمن كثيرًا حول الخصوصية فيما بين السطور. ففي شهر 12, لسنة2004 تم توقيع قانونا للمخابرات. فإن هذه الوثائق تدل على الأوامر الحقيقة لإعلان حالة الطوارئ و بشكل تدريجي و جعلتها جزءا من الحياة اليومية. ففي السابق قال العالم و بحق إن هذه التطورات هي مشاكل أمريكية. أما الوقت الحاضر فنعيش في عالم إلكتروني حيث تؤثر الأفكار و القرارات حول الخصوصية على حياة مواطني الدول الأخرى و في بعض الأحيان بدرجة اكبر مما تؤثر على المواطنين الأمريكان أنفسهم فهناك سبب معلل للهموم الدولية.

أما الأوربيون فكان لهم دائما موقف مسامح جدا مقابل معاملات الأمريكان في أوطانهم الذاتية و قد أصبحوا اكثر مقلقين أن الصيحة المستمرة حول *الخطر الواضح و الحاضر* (Clear and Present Danger) هي اكثر من ذكرى للأخطار التي تقابل بها الشاب الذي يستغيث كذبًا أكثر من المعقول قد كان الأروبيون في حالة من الاندهاش و الإزعاج في حل هذا التناقض الظاهري: من جهة فقد يعاقب شكليا أية نقد على الحكومة أو المناقشة المعلنة تتعلق بالإرهاب و من جهة أخرى يتم في نفس الوقت التواصل على إخراج و تصدير الأفلام من هولي وود حول أرعب الحالات. فمن المحتمل أن يلاحظ العالم النفساني النمساوي فرويد أن كتم لحالة الخوف الواعي في الحياة اليومية لا بد من الرجوع إلى حالة ألا شعور حالة الغير الإدراك . إن كان هولي وود تمثل ألا شعور فقد لم يكن لفرويد أية سبب للهم من اجل فقدانه لعمله فإذا كان له عمل كثير.